أفضل صديق للإنسان

بقلم آج هوفماند
ترجمة رائدة ادريس

كان من المقرر أن أذهب وأحضر خطيبتي للتنزه. وكان مطر الليل قد احال الطرقات رطبة موحلة إلى درجة انني صممت على انتعال جزمة التزلّج.

ولكي تظهر جزمة التزلج بمظهر جيد، كان عليها أن تكون مشحّمة حتى تلمع. فإذا كانت جافة ومغبرة، فهي لا تشبه شيئاً. كان هذا شأن جزمتي. ولسوء الحظ، لم يعد عندي شحم. وأخيراً اكتشفت على رف المطبخ قطعة كبد قديمة كانت تبعث رائحة قوية! كانت تبدو منسية وغير صالحة للاستعمال في المطبخ. فلماذا لا أستعملها؟ كان هذا أفضل من لا شيء.

ولما أصبحت جزمتي لامعة، بدأت سيري. وكنت واقفاً أمام واجهة خردويّ - هو ما يجعل المرء حالماً إذ يواجه الزواج والطناجر والمقالي والباقي كله - عندما أحسست فجأة شيئاً يلامس قدميّ. نظرت: كان كلباً، جعيداً، أبيض كبيراً وضخماً يلحس جزمتي. قلت له: «هل تسمح؟ هل تتصور أنني دعوتك للفطور؟ اذهب». كان الحيوان قد أبهت بريق طرف من أطراف الجزمة. حاولت أن أطرده واستأنفت سيري.

وفي زاوية الشارع، لحق بنا كلب راع أسود. كان الكلبان يتبعان أثري بأمانة، فما أن أتوقف حتى يبدأ كل منهما بلحس إحدى الجزمتين. كنت دائماً أتباهى باجتذاب الكلاب ولكن هذه المرة كان الأمر يتجاوز الحد الذي كنت أرغبه. كنت أحث الخطى، آملاً إتعابهما. وبعد بضعة شوارع ظهر شريك متواطىء ثالث: كلب أوكاد. بدا في غاية العدوانية، ولكن الجعيد وكلب الراعي، الحريصين على الاحتفاظ بحقهما في الجزمة، دخلا في معركة. وقد انتهزت هذه الفرصة فأخذت أركض. كنت أنعطف حول الزاوية وكنت اعتقدت أنني نجوت حين أقبل رفاقي الثلاثة - لا، الآن كانت قد أصبحت أربعة - وهي تنبح. كان الرابع كلباً دانماركياً ضخماً.

ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ توقفت وأنا أشتعل غضباً. كانت الحاشية كلها قد انكبّت على جزمتي السيئة الحظ. ألقيت نظرة عليها. كنت مستعجلاً.

التجأت إلى دكان الحلوى، وابتلعت بسرعة قطعة على سبيل الاعتذار. ما كدت أقوم بخطوتين حتى شعرت أن حاشيتي كانت على أثري.

حاولت حيلة جديدة. اشتريت قطعة لحم كبيرة من عند جزّار، ولوّحت بها أمام الكلاب وقذفتها إلى أبعد ما أستطيع على الشارع. ثم أسرعت باتجاه معاكس. كنت قد اعتقدت أن الحيوانات ستتقاتل على اللحم وستنساني. ولكن لا: التقط الدانماركي الكبير الغنيمة بفتور، وأحاطت بي الكلاب الأربعة وهي تقفز قفزات الفرج.

في هذه اللحظة، اجتمع عدد من الأولاد الصغار. قال أحدهم:

«آه انظروا إلى الرجل المضحك مع هذه الكلاب!».

زعق شرطي: «اذهب من هنا! لا يمكنك أن تجمع جمهوراً هنا. هذا ليس مكاناً للتمثيليات. أرجوك اذهب من هنا».

وابتعدت مع شلتي. كان الوقت متأخراً. كان عليّ أن أجد حلاً. ماذا سيظن أهل زوجتي إذا وصلت مع وحوش العرض هذه؟

قررت أن التجيء إلى حيلة جديدة. اخترت حاجزاً مشبكاً، عالياً، حاجزاً ذا مظهر مسالم تماماً، يبدو كسياج ورشة بناء تحتته ودخلت، يتبعني مرافقيّ. كانوا فضوليين. وعندما دخلوا كلهم. تسلّلت خارجاً، وفي نيتّي أن أصفق الحاجز خلفي بهدوء، ولكنه كان ينغلق آلياً، فاستغرق بعض الوقت. ووجد ثلاثة من تابعيّ - كانوا قد قضوا وقتاً طويلاً لفهم ما يحدث - وجدوا أنفسهم محتجزين، ولكن الجعيد الذي كان يمشي في ظلّي، انزلق معي إلى الخارج، وأخذ يلحس جزمتي باندفاع، وهو مسرور لكونه قد تخلّص من خصومه.

زمجرت، ركلته، وحاولت اخافته... بلا جدوى. إذ ذاك، مـرّت قاطرة. قفزت إليها. كان الجعيد على مسافة قليلة، ولكنه بدأ يخبّ وراء القاطرة. عجّل السائق. حذا الكلب حذوَه. اجتزنا موقفاً بعد الآخر. كان الكلب يجد صعوبة ليحافظ على اندفاعه بين المواقف. ولكن عند كل موقف، كان يستدرك الطريق. وبالطبع لم يكن من الممكن أن يستمر ذلك طويلاً.

«آه، أنظر هذا الكلب الصغير والمسكين» صاحت أمرأة كانت بقربي.

وصاحت أخرى: «كيف يطاوعك قلبك لكي تتركه يركض هكذا؟ أجل، انني أتوجه إليك أنت». كانت تنظر إليّ بعداء. «انه كلبك».

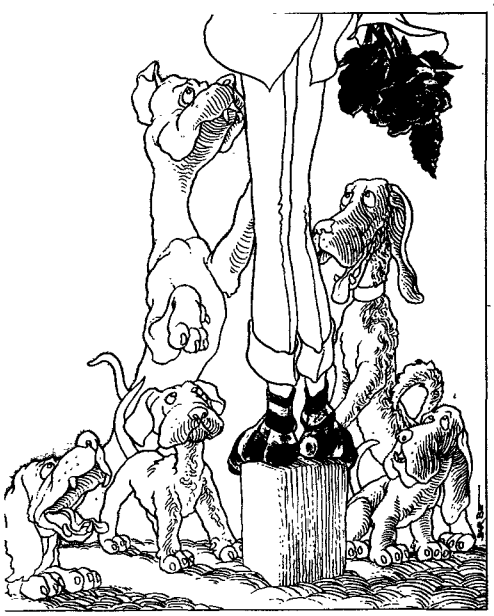

أجبت: لا، هو ليس كلبي».

«لا حاجة لمحاولة الإنكار. لقد رأيتك بنفسي مع هذا الحيوان. عليك أن تخجل من قسوتك».

أجبت: «أجل، لكنك تخطئين. هذا الكلب ليس لي».

قالت: «هذا غير معقول». كانت امرأة ذات مظهر متسلّط. «الكل يستطيع أن يلاحظ كم هو متعلّق بك. عليك أن تنزل. هل تسمع؟ وأن تعتني بهذا الكلب وإلاّ أستدعي شرطياً، وستقام شكوى ضدك أمام جمعية الرفق بالحيوانات». من الواضح أن من عادة هذه المرأة أن تكون لها الكلمة الأخيرة.

كان كل راكبي القطار ضدي.

تنهدت ونزلت.

والتقاني الكلب الصغير. ورافق خطواتي بفرح. كان البائع الجوّال يزن تفاحاً. وكان هناك حبل مربوط بأحد الدواليب. كان الكلب يلبس عقداً. وكان هذا مغرياً. وأنا أداعبه، حصرته بالدولاب. وبمهارة، أحكمت الحبل على العقد. وتهيأت لكي أهرب متخفياً، ولكن الكلب رآني وانطلق، محدثاً للحبل حركة عنيفة. ارتجّت العربة وتدحرج التفاح على الطريق. صرخ الرجل: «توقف! أي لعب شيطاني تلعب هنا. ولماذا بحق الشيطان تريد التدخل بأعمال الناس الشرفاء؟».

كان ذلك فظيعاً. كان ينفجر بالتهديد. تذكرت فجأة أن أحد أصدقائي كان قد أنقذ نفسه من وضع شبيه متظاهراً بأنه أجنبي.

سألته ساخطاً: «ماسا تكول؟».

– «هل تجرؤ إذاً على القول بأنك لست أنت من يلعب معي هذا الدور الحقير». قال متحدياً: «هل تجرؤ؟».

– «التلب ليس لي. لا أستتيع أن أفحل سيئاً».

زعق: «أنظر إلى تفاحي».

– «لا أستتيع أن أفحل سيئاً. هذا سخلك!».

أجرى بعض التفكير على مبادئه بألاّ يلجأ أبداً إلى الشرطة إلاّ إذا... سيذهب لإحضار شرطي وسيحمل شكوى ضدي كباعث للفوضى والبلبلة.

قلت: «هذا ليس هسناً. إنك لا تتهرك وتسرخ!».

نعتني بالمنافق، زاعماً أنني استخف به.

إذ ذاك سألني إن كنت أفهم المزاح، ورماني بموزة على رأسي.

وضعت قبعتي بفلسفة وابتعدت.

بعد وقت قصير، كان الجعيد على أثري. كان البائع قد أطلق سراحه. وكان يتبع جزمتي بأمانة، خطوة، خطوة، بنظرات رغبة. كانت سيارة فارغة متوقفة أمام الرصيف. حاولت فتح الباب بنجاح. فكرت أن الكلاب تحب السيارة. سيكون أمراً سهلاً إن استطعت إدخال جعيدي فيها. وهذا لن يضر المالك، وقبل أن يأتي ويطلق سراح الحيوان، سأكون بعيداً.

ألقيت نظرة فيما حولي. ليس هناك من أحد. دخلت وجلست أمام المقود. قفز الجعيد، وقد أثارته فكرة نزهة، واستقر جواري على المقعد. ثم تظاهرت بالخروج لكي أشغل المحرك. صفقت الباب على الكلب. وأخيراً كانت لي الكلمة الأخيرة. قلت: «الحيوان الحقير». ومضيت.

صرخ صوت: «مهلاً لحظة، يا سيد». كان شرطياً. «لا يمكن أن تقف هنا. ألا ترى هناك المكان المشار إليه للتوقف؟ عليك أن توقف سيارتك في الموقف القانوني».

كانوا قد رأوني أخرج منها. استسلمت. احتفى بي الكلب. قال الشرطي: «كيف! لقد تركت مفتاحك على جهاز الانطلاق، وهذا ممنوع وينبغي أن تدفع غرامة». كنت أحس أني أعرف قيادة السيارات. لم تكن لي رخصة، غير أنني كنت قد قدت سيارة أحد أصدقائي. ولكن اما انني قد نسيت، أو انني كنت شارداً بالشرطي والكلب. فقد دست على مسرّعة البنزين بدون أن أدوس على المكبح وبعنف إلى حد أن السيارة اصطدمت بمصباح، فكسرت الضوء وانطلقت باتجاه واجهة لمخزن زهور للتوقف وسط الزرع.

وفي المخفر، بصفتي رجلاً محترماً، أردت أن أشرح كل المغامرة، ولكن عندما تكلمت عن قطعة الكبد، هزّ الشرطيون رؤوسهم وجعلوني اقتنع بأنني سكران. هناك كمية من الكلمات أعجز عن التلفظ بها حتى عندما أكون موجزاً، وقد رسبت دائماً في الامتحانات. وسقطت ولم أستطع أن أعطي دليلاً على اعتدالي.

حوكمت بأربعة أشهر لمحاولة سرقة سيارة، وبأربعين يوماً للقيادة دون رخصة، وبشهرين لكوني أقود في حالة سكر، وبشهر لكوني حطّمت واجهة مخزن، وبغرامة خمسين كورونا لأنني تركت المفتاح على المقود، وبأخرى بمئة كورون للقيادة الطائشة، وأخيرة بمئتي كورون لمعاملة الحيوانات بقسوة. بالإضافة إلى ذلك كان علي دفع ٩٣٥ كورونا للمجلس البلدي للأضرار اللاحقة بالمصباح، و ٢٥٠٠ كورون لشركة تأمين واجهة الزهّار و٨٧٥ كورونا للزهّار تعويضاً لبضاعته و ١٥٠٠ كورون للمالك لتصليح المبنى، و ١٠٠٠ كورون للبائعة تعويضاً عن صدمة عصبية أصيبت بها، و ١٥٠ كورونا للموظف لدراجته المعطوبة و ١٣٨٠ كورونا لمالك السيارة للاصلاحات. بالإضافة إلى ذلك رفض اعطائي إجازة قيادة لمدة خمس سنوات.

صُدم أهل زوجتي، وفسخت خطيبتي الخطوبة...

لا تشحموا جزماتكم أبداً بقطعة كبد!

ترجمة رائدة إدريس